تكامل الرؤية المعرفية في تصور عناصر بناء الحضارة عند مالك بن نبي

د.رقية بوسنان

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقدمة:

تطرح الكثير من الأدبيات العلمية، مصطلح التكامل المعرفي لإيجاد حال التآلف بين العلوم المختلفة و مجاورتها و هي عودة للبحث عن الفكر الموسوعي الذي كان يشتغل و يعالج الظواهر و الأفكار و القضايا، و هو ملم بمختلف المعارف العلمية، و الاجتماعية، و الثقافية، و السياسية، و الإقتصادية، و الأخلاقية، التي تخدم الفرد و المجتمع و الدولة و الأمة، فقدمت لذلك أهم النظريات، و أسس المدارس الفلسفية الكبرى، التي تحولت إلى مناهج للحياة الإنسانية جمعاء.

وفي هذا البحث يتم التركيز على موضوع هام جدا، هو الحضارة و العناصر المشكلة لها و هي: الإنسان، و" التراب"، و"الزمن"، و مدى حضور الرؤية المعرفية التكاملية بينها، و قد تبدو المسألة معقدة نوعا ما، لأن مجالاتها واسعة جدا، فالإنسان تتجاذبه الكثير من النظريات الكبرى المفسرة لنشأته، و هو بالنهاية أساس الحضارة لأنه الفاعل الأول في عناصرها الأخرى.

كما أن "التراب" – الأرض أو الجغرافيا- يحمل دلالات و معاني كثيرة: القانونية و السياسية، و الديموغرافية، و الجيولوجية، و الاستراتيجية، و هو منشأ للأجناس البشرية المختلفة، و مكان للبنيان و الصنائع المتنوعة، فهو الجانب المادي لهذه الحضارة منه تستمد قوتها و ازدهارها.

و يعد "الوقت" المجال الزمني الذي تظهر فيه الحضارات أو تأفل، و هو قيمة معنوية لا تقاس بالساعات، و إنما يقاس بمدى التخطيط و الاستثمار في دائرته، و التعامل مع الوقت بحكمة و تدبر يولد حضارة قوية و متماسكة.

و لا يمكن لهذه العناصر أن تتفاعل و تنتج الحضارة، إلا بمقوم أساسي، هو الدين الذي ينظم الحياة في كل المستويات، و مهما اختلفت النظريات في أهمية هذا المقوم و فاعليته، ومهما حاولت و تحاول أخرى استبعاده من تسيير شؤون البشر، فإنها سوف تكون مغالطة تاريخية و آنية لأن الواقع التاريخي، و الحاضر يثبتان صحة الحضور الديني في كل المستويات. وهو كذلك في الفكر الموسوعي لمالك بن نبي، و الذي يمكن عرضه من خلال المحاور الآتية: مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي، العناصر المكونة للحضارة، الرؤية التكاملية لهذه العناصر، الإسناد المعرفي حول هذه الرؤية.

أولا : الإشكالية

تشكل كتابات مالك بن نبي مجالا خصبا للحديث على تكامل المعرفة، حيث ينطلق في طرح أفكاره و معالجتها من رؤية كونية إسلامية و رؤية إنسانية، تصور كلاهما عناصر بناء الحضارة و المختزلة في ثلاثية معيارية هي الإنسان، و التراب، و الزمن، و إذ تتأكد هذه الرؤية التكاملية في فكر مالك بن نبي فإنها تؤكد على أن المفكر يدرك مالها من فوائد علمية حاضرة و مستقبلية في صنع التوازن لدى المسلم المعاصر، الذي يرتبك عادة أمام بعض الأطروحات الحداثية التي تقصي البعد الإسلامي من التصور الريادي للمفاهيم المختلفة التي تشترك فيها الإنسانية جمعاء، باعتباره تصورا ساد في فترة تاريخية مغايرة تماما لما تعيشه البشرية اليوم من تطور محقق في جميع المجالات.

إن هذه النظرة الإقصائية للتصور الإسلامي لم تثن مفكرين من أمثال مالك بن نبي أن يوضح في كتاباته المجموعة ضمن سلسلة مشكلات الحضارة من أن يكتب وفقا للتصور الإسلامي و يستشهد بالنصوص الشرعية من القرآن و السنة ليؤكد السبق المعرفي و الاستيعاب الحضاري لكل قديم و حديث من مفاهيم و إشكالات و قضايا أخلاقية و اجتماعية و ثقافية و سياسية و اقتصادية و هي في كلها كمركب جزء من مفهوم أعم هو الحضارة.

لقد جاءت فكرة الموضوع لتناقش هذا التصور المتميز لباحث متميز عايش حضارتين مختلفتين هما الحضارة الإسلامية و الحضارة الغربية، لتوضح اعتدال هذا الفكر في طرح و تعزيز رؤية التكامل المعرفي بين العلوم الإسلامية و العلوم الأخرى التي يصبو هذا المؤتمر من خلال محاوره طرحها ويدعو إلى تحليل أطرها و الكشف عن المشكلات التي تعترضها، فجاء التساؤل الرئيسي: هل هناك تكامل معرفي في تصور عناصر الحضارة عند مالك بن نبي؟ ويتفرع عن هذا السؤال تساؤلات فرعية هي:

1- ما مفهوم الحضارة في فكر مالك بن نبي؟
2- ما هي عناصر الحضارة في فكر مالك بن نبي؟
3- كيف تتوضح الرؤية التكاملية لعناصر الحضارة في فكر مالك بن نبي؟
4- هل هناك إسناد معرفي للرؤية التكاملية عند مالك بن نبي؟

وتنبع أهمية هذا البحث من كونها تنطلق من مفاهيم ودلالات هامة كالآتي:

_ موسوعية فكر مالك بن نبي التي تعد مجالا خصبا لأبحاث كمية ونوعية تحاول إبرازها في مجالات متعددة.

_استيعاب عناصر الحضارة من إنسان وتراب وزمن للمشكلات التي تطرح على مستوى محلي وإقليمي ودولي.

_التأكيد على أن الدين مقوم أساسي من مقومات أي حضارة وهو الفاعل فيها، وفي بنائها وتطورها وازدهارها.

_الرؤية المنهجية لمالك بن نبي في طرح مفهوم الحضارة وعناصرها وتكاملها ضمن الأطر المادية والتجريبية والأخلاقية.

_ إسهامات بن نبي لوضع حلول لبعض المشكلات الخاصة بالإنسان و التراب و الزمن و استشراف هذه الحلول المناسبة لواقعنا الإسلامي.

– فكرة التكامل المعرفي التي يدعو إليها الكثير من الباحثين، لإيجاد تجاور بين العلوم الدينية و العلوم الإنسانية، و التي تسهم في بناء حضارة قوية تعيد للإنسان هيبته ومقامه و وظيفة الخلافة و عمارة الأرض.

وتتوخى الباحثة من خلال هذا البحث الإجابة على كل تساؤلاته، عن مفهوم الحضارة، و عناصرها، و الرؤية التكاملية لها، و الإسناد المعرفي لهذه الرؤية، بالإضافة إلى التأكيد على أهمية فكر بن نبي الذي استوعب المعارف المختلفة و وظفها في إطار ما يسمى بالإحياء الحضاري الجديد الذي يؤكد على البعد الديني فيه، ثم الاعتراف بمجهوداته المعرفية التي قدمها لذلك.

تعتمد الباحثة في هذه الورقة المنهج الاستقرائي، و الاستقراء هو عملية استدلال صاعد يرتقي فيه الباحث من الحالات الجزئية إلى القواعد العامة، أي انتقال من الجزئيات إلى حكم عام، و لذلك تعتبر نتائج الاستقراء أعم من مقدماته، ويتحقق الاستقراء من خلال الملاحظة والتجربة ومختلف تقنيات البحث المتبعة[1].

ثانيا: مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي

ينطلق مالك بن نبي في مؤلفاته المتعددة من وحدة تحليل أساسية هي الحضارة باعتبارها النقطة البعيدة التي ينبغي أن يؤول إليها كل تغير اجتماعي إيجابي و قد ناقشها من زوايا عدة: من حيث جوهرها و مبدئها و باعتبار وحدتها وعلاقتها بمنتوجاتها ومن حيث تركيبها و وظيفتها[2].

و نقطة تشكل أو إطلاق كلمة الحضارة هي بداية دخول مجتمع ما مرحلة التاريخ بصفة متحضرة، عن طريق فكرة أساسية هامة "إن حضارة ما، ما هي إلا نتاج فكرة جوهرية تطبع على مجتمع في مرحلة

[1] أ. لارامي، ب.فالي: البحث في الاتصال "عناصر منهجية"، ترجمة، ميلود سفاري و آخرون: ، مخبر علم اجتماع الاتصال، جامعة منثوري، قسنطينة، الجزائر، 2004، ص 54.و عبد العالي المنفي: المنهج الاستقرائي عند الإمام الشاطبي، http://www.diwanalarab.com/spip.php

[2] الطاهر سعود: التخلف والتنمية في فكر مالك بن نبي، دار الهادي، بيروت، لبنان، 2006، ص120.

ماقبل التحضر الدفعة التي تدخل به التاريخ، ويبني هذا المجتمع نظامه الفكري طبقا للنموذج الأصلي لحضارته، إنه يتجذر في محيط ثقافي أصلي، يحدد سائر خصائصه التي تميزه عن الثقافات والحضارات الأخرى"[3].

وتعبر كلمة "الحضارة" عن: "مجموعة من العلائق بين المجال الحيوي(البيولوجي) حيث ينشأ ويتقوى هيكلها، وبين المجال الفكري حيث تولد وتنمو روحها"[4]، فدور الأفكار في حضارة ما لا يقتصر على مجرد الزينة والزخرفة...ففي فترة اندماج مجتمع ما في التاريخ يكون للأفكار دور وظيفي، لأن الحضارة هي القدرة على القيام بوظيفة مهمة.[5]

و الحضارة هي:" مجموع منسجم من الأشياء و الأفكار، بصلاتها و منافعها و ألقابها الخاصة و أماكنها المحددة، و مجموع كهذا لا يمكن أن يتصور على أنه مجرد تكديس، بل كبناء و هندسة، أي تحقيق فكرة مثل أعلى"[6]، وتعني أيضا: مجموع الشروط الأخلاقية و المادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده، في كل طور من أطوار وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه[7].

و تعتبر الحضارة الناتج الحاصل ضرورة عن حركة المجتمع، وهي حركة شاملة في مجال الفكر والاقتصاد، و في رحاب التوازن الروحي و المادي، و من دون هذه المسألة لن يكون المجتمع مجتمعا[8]، "فهذا التحديد الوظيفي يجعل الحضارة تتمثل في جانبين، الجانب الذي يتضمن شروطها المعنوية، في صورة إرادة تحرك المجتمع نحو تحديد مهماته الاجتماعية والاضطلاع بها، والجانب الذي يتضمن شروطها المادية، في صورة إمكان، أي أنه يضع تحت تصرف المجتمع الوسائل الضرورية للقيام بمهماته، أي بالوظيفة الحضارية"[9].

" وتكسب الجماعة الإنسانية صفة المجتمع، عندما تشرع في الحركة، أي عندما تبدأ في تغيير نفسها من أجل الوصول إلى غايتها، وهذا يتفق من الوجهة التاريخية مع لحظة انبثاق حضارة معينة، أما الجماعات الساكنة، فإن لها حياة اجتماعية دون غاية، فهي تعيش في مرحلة ما قبل الحضارة، والخلاصة،

---

[3] مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر، سوريا، ط9، ، ص41.

[4] مالك بن نبي: شروط النهضة، دار الفكر، سوريا، ط9، 2009، ص 50.

[5] مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، المرجع السابق، ص42.

[6] مالك بن نبي: فكرة الافريقية، الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ، دار الفكر، سوريا، ط9، 2009، ص 84.

[7] مالك بن نبي: أفاق جزائرية، ترجمة الطيب الشريف، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، دت، ص 47. في أسعد السحمراني، مالك بن نبي"مفكرا إصلاحيا"، دار النفائس، بيروت، ط2، 1986، ص 144.

[8] أسعد السحممراني، المرجه نفسه، ص 144.

[9] مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد، دار الفكر سوريا، ط9، 2009، ص 61.

أن الطبيعة توجد النوع، ولكن التاريخ يصنع المجتمع، وهدف الطبيعة هو مجرد المحافظة على البقاء، بينما غاية التاريخ أن يسير بركب التقدم نحو شكل من أشكال الحياة الراقية وهو ما يطلق عليه اسم الحضارة".[10]

يرى مالك بن نبي أن الحضارة في مجموعها ناتجا للإنسان و التراب و الوقت، و هي في مجموعها تحتاج إلى مركب ينتج و يمزج بين عناصرها وهو الفكرة الدينية التي رافقت دائما تركيب الحضارة خلال التاريخ[11].

ويميز مالك بن نبي بين الحضارة الشيئية و الحضارة الحديثة، فالأولى: تشتري الأشياء العديدة و تكدسها و لا تستفيد منها، و هذه حال العالم الإسلامي، و الثانية: تخطط وتنتج وفق منهج فني تطبق فيه قوانين الكيمياء الحيوية و الديناميكية الخاصة أثناء التكوين و التطوير، حال الصين و روسيا و اليابان.

ويوضح بن نبي في معرض المقارنة بين نشأة الحضارتين المسيحية و الإسلامية، أن تطورهما لا يختلف، "فهما تنطلقان من الفكرة الدينية التي تطبع الفرد بطابعها الخاص و توجهه إلى غايات سامية، فالحضارة لا تنبعث إلا بالعقيدة الدينية، و ينبغي أن نبحث في حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها، و لعله ليس من الغلو في شيئ أن يجد التاريخ في البوذية بذور الحضارة البوذية، و في البرهمية نواة الحضارة البرهمية...فالحضارة تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي[12].

و يوضح جيزو أن تركيب الحضارة الأوروبية، كان من عمل الفكرة المسيحية:" تلكم هي السمة العظيمة الأصيلة للحضارة الأوروبية، منذ أن تطورت تحت تأثير الإنجيل تأثيره الظاهر و الخفي، المنكر أو المرضي، حيث عاش القهر و الحرية و كبرا معا"[13].

ويجلي مالك بن نبي هذا التوجه بالبرهنة على أن الشيوعية ليست مذهبا ماديا فقط، بل في جوهرها ما يفيد التوجه الروحاني:"تعد الشيوعية النظرية قبل كل شيئ فكرة ماركس، و لكن هناك شيوعية واقعية، هي في جوهرها نشاط المؤمنين المدفوعين بالقوى الداخلية نفسها التي دفعت غيرهم من المؤمنين في مختلف العصور، أولئك الذين شهدوا مولد الحضارات، فالظاهرة متماثلة في جوهرها النفسي، و محددة هنا و هناك بسلوك الفرد حيال مشاكل المجتمع الناشئ"[14].

---

[10] مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، دار الفكر سوريا، ط6، 2006، ص 18.

[11] مالك بن نبي: شروط النهضة، مرجع سابق، ص 50.

[12] المرجع السابق، ص 48-56.

[13] مالك بن نبي، ميلاذ مجتمع، مرجع سابق، ص60.

[14] مالك بن نبي: شروط النهضة، مرجع سابق، ص 60.

لقد حاول مالك بن نبي إيجاد الصيغة الملائمة لبلورة فكرته القائمة، على وجود المركب الحضاري المتمثل في الفكرة الدينية التي توجد الفرص المعززة للتفاعل، الكهروحضاري، المولد للمشهد المرغوب فيه من قبل فئة أو جماعة تنطبق عليها صفة التغيير نحو الأفضل، و الفاعلية، فإذا ما انكفأت جماعة ما يربطها وازع ديني هادف و منسجم، مع تطلعاتها و آفاقها، وحققت الانسجام المطلوب الذي تنشده الفكرة الدينية، فقد غيرت من وضعها السلبي نحو المجاوزة و المبادرة، و التأسيس لمشهد معين من المشاهد الحضارية المنبثقة و المتألقة تنعكس على الجماعة الاولى و هي المنطلق.[15]

و الحضارة شرط من الشروط اللازمة لأي اجتماع بشري مستقر، و سقوط حضارة أي مجتمع، هو سقوط للوجود المميز لهذا المجتمع، و تذويب لشخصيته، كما أن أي اجتماع بلا حضارة لها صفة التطور، سيكون اجتماعا تغلب عليه صفة البدائية، و تسوده شريعة الغاب، و ذلك يتنافى مع تحقق إنسانية الإنسان، و لعل دروس تاريخ الحضارات في العالم تؤيد ما تصوره مالك بن نبي حول الحضارة، فالعرب مثلا بعد أن كانوا بدوا في الجزيرة العربية أو خارجها، فإذا بالإسلام يبعث فيهم روح التآلف ويدفعهم إلى التحضر[16].

سادسا: العناصر المكونة للحضارة

يحدد مالك بن نبي العناصر المكونة للحضارة في ثلاثية معيارية متآلفة هي الإنسان و التراب و الوقت، و يؤكد على عنصر رابع يمزج و يركب هذه العناصر، فتارة يسميه بالأخلاق، وتارة بالفكرة الدينية، و أخرى بالقيم الإسلامية، و لا تكاد تخلو مؤلفاته جلها من الإشارة تصريحا أو تلميحا لهذه العناصر ، وسيتم تناولها وتناول ما ينضوي تحتها بإيجاز يراعي خصوصية الكتابة للمؤتمر.

1- الإنسان:

أولى مالك بن نبي عناية بالغة بالإنسان في معالجته لمشكلات الحضارة، انطلاقا من قيمته و دوره في التاريخ، و باعتباره الأساس الذي من خلاله تنطلق الحضارة في مراحلها الثلاثة، حيث يكون في البداية ساكنا خامدا ثم عنصرا حضاريا فعالا، أو جزئيا محروما من كل قوة دافعة عندما تبلغ هذه الأخيرة نهايتها المحتومة، و هي مراحل متدرجة تعبر عن حركة الإنسان حينما يستغل مابين يديه من عنصري التراب و الوقت[17].

[15] بشير ضيف الله: فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي، مشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2005، ص 75.

[16] أسعد السحمراني: مرجع سابق، ص 143.

[17] الطاهر سعود، مرجع سابق، ص 207.

و الإنسان عند مالك بن نبي يؤثر في المجتمع أو الحضارة بثلاث مؤثرات هي: الفكر، و العمل، و المال، و قضيته منوطة بتوجيهه في نواح ثلاث: توجيه الثقافة، توجيه العمل، توجيه رأس المال و فكرة التوجيه هي قوة في الأساس و توافق في السير و وحدة الهدف.

"فالتوجيه هو تجنب الإسراف في الجهد و الوقت، فهناك الملايين من السواعد العاملة و العقول المفكرة في البلاد الإسلامية، صالحة لأن تستخدم في كل وقت، و المهم أن يدار هذا الجهاز الهائل المكون من ملايين السواعد والعقول في أحسن ظروفه الزمنية و الانتاجية المناسبة لكل عضو من أعضائه، و هذا الجهاز حين يتحرك يحدد مجرى التاريخ نحو الهدف المنشود و في هذا تكمن أساسا فكرة توجيه الإنسان الذي تحركه دفعة دينية، و بلغة علم الاجتماع: الذي يكتسب من فكرته الدينية معنى الجماعة و معنى الكفاح"، و حين يتحدث مالك بن نبي عن توجيه الثقافة فهو يدعو بداية إلى تحديد ما نحن عليه من أوضاع بطريقتين: الأولى سلبية تفصلنا عن رواسب الماضي، و الثانية إيجابية تصلنا بمقتضيات المستقبل[18]، و يضع لذلك التوجيه محاور محددة ينطلق منها هي:

- الأخلاق لتكوين الصلات الاجتماعية.
- الجمال لتكوين الذوق العام.
- المنطق العملي لتحديد أشكال النشاط العام.
- الفن التطبيقي الموائم لكل نوع من أنواع المجتمع، أو الصناعة.

يقول مالك بن نبي: "لا تكتمل ثقافة الإنسان إلا بتحقق أربعة أشياء: المبدأ الأخلاقي، و ذوق الجمال، و المنطق العملي، و العلم أو الصناعة، و هي مبادئ كفيلة بجمع شروط الفعالية."[19]

و يذهب مالك بن نبي في تحليل المحور الأول إلى أن المبدأ الأخلاقي هو روح الإسلام الذي تؤلف بين الناس و تؤدي إلى قوة التماسك الضرورية للمجتمع الإسلامي هذه القوة تعبر عن الإسلام المتحرك في العقل و السلوك، و هي جديرة بأن تؤلف الحضارة المنشودة، و بذوق الجمال الذي ينطبع فيه فكر الفرد، يجد الإنسان في نفسه نزوعا إلى الإحسان في العمل، و توخيا للكريم من العادات.

و في حديثه عن محور الجمال، و هو محور تتهذب به الأنفس، و الطبائع، و تقوم به السلوكيات الراقية، وهو معيار مهم لتقدم الإنسان و فعله في محيطه، و الذي يتجلى في علاقته بأخيه الإنسان و الأشياء، و البيئة، يقول: "ولا شك أن للجمال أهمية اجتماعية و يجب إعداده حتى يصبح المنبع الذي

---

[18] مالك بن نبي، ميلا مجتمع، مرجع سابق،ص84- 86.

[19] مالك بن نبي: مالك بن نبي: تأملات، دار الفكر المعاصر لبنان، دار الفكر سورية، 2009، ص151.

تنبع منه الأفكار، و تصدر عنه بواسطة تلك الأفكار أعمال الفرد في المجتمع، و الواقع أن أزهد الأعمال له صلة كبرى بالجمال، فالشيئ الواحد قد يختلف تأثيره في المجتمع باختلاف صورته التي تنطق بالجمال، أو تنضح بالقبح، و نحن نرى أثر تلك الصورة في تفكير الإنسان و في عمله و في السياسة التي يرسمها لنفسه، بل حتى في الحقيبة التي يحمل فيها ملابس سفره، و لعل من الواضح أننا أصبحنا نفقد ذوق الجمال، و لو أنه كان موجودا في ثقافتنا، لسخرناه لحل مشكلات جزئية، تكون في مجموعها جانبا من الحياة".[20]

و يلح بن نبي في المحور الثالث على الفعالية و هي ربط منطق الفكرة بمنطق العمل من أجل القضاء على العقم الاجتماعي، أو –السلبية المجتمعية–، التي تجعل من المسلم يتكلم عن مبادئ القرآن الكريم و لا يعيش وفقها، و يتم ذلك تحديدا في معرض المقارنة بين الجيل الأول في الدولة الإسلامية، و الجيل المعاصر[21].

يقول:"ونحن أحوج ما نكون إلى المنطق العملي الذي يبين طريقة ارتباط العمل بوسائله و معانيه، لأن العقل المجرد متوفر، غير أن العقل التطبيقي الذي يتكون في جوهره الإرادة و الانتباه فشيء يكاد يكون معدوما، إننا نرى في حياتنا اليومية جانبا كبيرا من اللافاعلية في أعمالنا، إذ يذهب جزء كبير منها في العبث و المحاولات الهازلة، و إننا إذا ما أردنا حصرا لهذه القضية فإننا نرى سببها الأصيل في افتقادنا الضابط الذي يربط بين عمل وهدفهن بين سياسة و وسائلها، بين ثقافة و مثلها، بين فكرة و تحقيقها، فسياستنا تجهل وسائلها، و ثقافتنا لا تعرف مثلها العليا، و إن ذلك كله ليتكرر في كل عمل نعمله و في كل خطوة نخطوها"[22]

و يرى بالنسبة للمحور الرابع أن "الصناعة" ليست ذلك المعنى الضيق، فالمقصود من هذا اللفظ بصفة عامة في البلاد الإسلامية كل الفنون و المهن والقدرات و تطبيقات العلوم تدخل في مفهوم الصناعة، و أبسطها رعي الغنم و مما يدلنا على القيمة الاجتماعية لهذه الحرفة المتواضعة أن لها مدرسة أهلية في فرنسا، فلو رأينا الراعي الخريج من هذه المدرسة و الراعي العربي يقود كل منهما قطيعه لعلمنا أي فرق بينهما؟ ومن المسلم به أن الصناعة للفرد وسيلة لكسب عيشه و ربما لبناء مجده، و لكنها للمجتمع وسيلة للمحافظة على كيانه و استمراره[23]. و التقنية أو الصناعة أو العلم، منذ أن قامت الإنسانية بما

[20] مالك بن نبي:شروط النهضة، مرجع سابق، ص 96-98.

[21] عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، مؤسسة عالم الأفكار، ط2، 2007، ص 111.

[22] مالك بن نبي، شروط النهضة، المرجع السابق، ص 102،103.

[23] مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، دار الفكر، سورية، 2009، ص 88.

يسمى تقسيم العمل، أي منذ عشرة آلاف من السنوات أو أكثر أصبحت هناك تقنية موجودة وعمل مصنف[24].

وتحضر في كتابات مالك بن نبي سياقات متعددة تحيط الإنسان بمنهج واضح يؤدي إلى فاعليته في العناصر الأخرى، أي "التراب"، و"الزمن"، فينطلق في بعضها من البعد الإيماني و هو بذلك يدعو إلى تفعيل العقيدة وحضور الدين في الحياة الاجتماعية، فالعقيدة وقود الدين، ولا تعني الركون إلى زوايا التخلف و الكسل، فهي عامل إبداع و تأثير على كل المستويات يقول:" فالمسلم لم يتخل مطلقا عن عقيدته، فلقد ظل مؤمنا متدينا، ولكن عقيدته تجردت من فاعليتها، لأنها فقدت إشعاعها الاجتماعي فأصبحت جاذبية فردية، وصار الإيمان، إيمان فرد متحلل من صلاته بوسطه الاجتماعي وعليه فليست المشكلة أن نعلم المسلم عقيدة هو يملكها، إنما المهم أن نرد إلى هذه العقيدة فاعليتها وقوتها الإيجابية و تأثيرها الاجتماعي"[25].

و النظر في التاريخ يجعل من الفرد يشهد دور الدين في حيويته، و هو يحقق عمله الاجتماعي بطريقة غير مباشرة، حين يهدف إلى غاياته الخاصة، فهو حين يخلق الشبكة الروحية التي تربط نفس المجتمع بالإيمان بالله، و هو يخلق بعمله هذا شبكة العلاقات الاجتماعية التي تتيح لهذا المجتمع أن يضطلع بمهمة الخلافة، و هو بذلك يربط أهداف الوحي بضرورات الأرض[26].

و يسوق مالك بن نبي مجموعة من النصوص الذي تأخذ من البعد النفسي للإنسان و رعايته و تنميته ما يحفظ توازنه و يعمل على الارتقاء به فيؤكد على ضرورة التخلص من نفسية التساهل و تتفيه الأمور، و نفسية الصعب و الاستحالة و هما حالتان يشعر بهما كل فرد يحاول أن يقوم بعمل معين، فتنتابانه من حيث لا يشعر أو يشعر، فتعطلان بذلك الكثير من إيجاد الحلول لمشكلات و قضايا مهمة كبيرة كانت أم صغيرة، يقول مالك بن نبي عن نفسية التساهل:"ومن وجهة النظر النفسانية يجب أن نبين أن خط السير لنشاطنا الشخصي أو الجماعي يجب أن يمر بين دهانين يبدو أنهما ينتابان سائر البلاد الإسلامية وهما ذهان الشيء السهل الذي لا يستدعي أي مجهود، و الذي يستميلنا إلى الكسل، وذهان الشيء المستحيل الذي يجعلنا نحكم مسبقا ومن أول وهلة بأن النشاط فوق مستوى وسائلنا، مما يفضي بنا إلى الشلل التام.[27]

---

[24] مالك بن نبي: مجالس دمشق، دار الفكر، سورية، 2009، ص 111.

[25] مالك بن نبي: وجهة العالم الاسلامي، دار الفكر، سورية، 2009، ص 54.

[26] مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، دار الفكر، سورية، 2009، ص 79.

[27] مالك بن نبي:القضايا الكبرى، دار الفكر المعاصر لبنان، دار الفكر سورية، 2009، ص 111.

و يقرب بن نبي مفهوم الذهانيين بصورة من واقع الأمس البعيد، و الذي بات حقيقة في واقعنا اليوم، فاليهود أصبحوا قوة يحسب لها ألف حساب فقد تطورت دولتهم بشكل يجعلها الفاعل في الساحة الدولية: "فكم من أمور و قضايا حقرناها و صارت عظيمة، نظرنا في الجزائر إلى اليهود نظرة احتقار و عدم التعامل معهم على أنهم قوة سياسية و اقتصادية و اجتماعية على غرار تعامل أمريكا و فرنسا و بريطانيا"[28].

و يحذر بن نبي من حالة اليأس و القنوط، التي تثير القلق و الركون إلى الخوف من كل شيء، و هي حالة يشعر فيها الفرد بان كل شيء انتهى فيصاب بالشلل في العلاقات و يفقد حيويته و نشاطه في النفع و الانتفاع، يقول:"أن لا يفقد الإنسان من نفسه معنى الخير كله مهما أحاطت به دوافع الشر، لأن الأصل في قلبه الخير و الشر عارض، إن من يرفع راية الخير قد يسد حاجة تشعر بها الإنسانية في أعماقها، و يحقق لنفسه مكانا كريما في المجتمع العالمي، وفي هذا المجال يمكن أن يكون مجالنا إذا حققنا في سلوكنا معنى الآية الكريمة:" ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير..."(آل عمران:104)، فإذا ما تحققت هذه الآية في سلوكنا العام بوصفها تخصصا لمجتمعنا بالنسبة لحاجة الإنسانية فسوف نكون قد لقينا على الخريطة الايديولوجية لونا يجعلنا من أكرم سكان العالم فالخير شرط لدخول المجمع العالمي وهو حاجة من حاجات الإنسانية الكبرى"[29].

و يدعو بن نبي و نفيا لحالتي اليأس و القنوط، إلى مواجهة المشكلات باستبشار و إ قبال ، لا بالعبوس و النفور، فالاستبشار أداة لتوليد طاقة إشعاعية تعمل على إضاءة الزوايا المظلمة التي تعيق العمل في إطار حل المشكلات الكثيرة و المتنوعة التي يواجهها الفرد و المجتمع، وهو بذلك ينقلها إلى فضاء الاستمرارية و فرض الذات، و يجنبها حالة العبوس و النفور باعتبارهما طاقات سلبية تشل الحركة و الدافعية لأي فرد أو مجتمع نحو الإبداع، "فمن العبث أن نفكر بأننا نستطيع التغلب على المستحيل لأنه مستحيل و نحن الذي حكمنا عليه بذلك".[30]

و يعرض مالك بن نبي معايير هامة، ترتقي بالإنسان من مستوى التفكير و السلوك إلى مستوى الحضارة أو الدين و ذلك للتمكن من بلوغ قممه و اكتشاف قيمه، ثم النزول إلى الهضاب المتعطشة، بقية الحضارات، و سقيها بالحقيقة الإسلامية و الهدى، فيضاف لها بعدا جديدا و الإنسان إذا أتى بهذا

[28] مالك بن نبي: تأملات، مرجع سابق،ص30.

[29] مالك بن نبي: تأملات، المرجع السابق، ص 216، 217.

[30] المرجع نفسه، ص30.

لا بلسانه و لا بشطحاته الصوفية، و إنما بوصفه إنسانا معاصرا للناس شاهدا عليهم شهادة الصادق الخبير الواعي لقيمة شهادته فعندئذ سيرتفع مستوى الحضارة[31].

ويقوم كل ذلك على مجموعة شروط تحقق أمرين: الاقتناع و الإقناع أولا لأن فاقد الشيء لا يعطيه فلا يمكن للمسلم إن لم يقتنع بأن له رسالة وهي أن يبلغ الآخرين هذه الرسالة، أو فحوى هذه الرسالة، أو مفعول هذه الرسالة...يجب على المسلم أن يضطلع برسالته، أن يفكر في إعجازه، وإعجازه لا يتأتى إلا بتحقيق شرط جوهري، وهو تغيير ما بنفسه وتغيير ما في محيطه مصداقا لقوله تعالى:"إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغييروا ما بأنفسهم. (الرعد:13)

يجب على المسلم ضمن سلسلة التغيير أن يعرف نفسه دون مغالطة، وأن يعرف نفوس الآخرين من دون كبرياء و تعال، و بكل أخوة و صدق و إخلاص، أن يحبهم لوجه الله، حتى تصل إليهم حرارة الإسلام و حرارة الحب الإسلامي وكل ما يناط بمفهوم التغيير يجب أن يتوخى فيه أمرا ألا وهو جانب الصحة وجانب الصلاحية.[32]

ويشير أيضا إلى أهمية إعادة الثقة بالذات، باعتبار أن المسلم هو صاحب رسالة، فالثقة تمنح المسلم المكلف بحمل رسالة الإسلام، الشعور بالراحة و الاطمئنان و الإنطلاق إلى العمل من غير كلل و لا ملل:" أن يساهم المسلم في بناء مجتمعه كي يستطيع أن يتكلم مع الآخرين ندا إلى ند و المسلم اليوم لا يتكلم ندا إلى ند بل يتكلم كإنسان منبوذ، لا يسمعه إلا بعض من وهبهم الله عقولا كبيرة يستمعون للفقراء أما الآخرون فهم لا يسمعون للمسلم، و عليه أن يستمر في تبليغ دعوة عطل تبليغها منذ ثمانية قرون، و هو المسئول عن هذا التعطيل، إنه لا يستطيع ذلك، و لذلك يجب أولا أن نبني مجتمعا يكون في مستوى عالمية الرسالة، ثم في مستوى البشر الذين نبلغهم"[33]

و على المسلم أن يتجاوز مشكلة النقص أمام الآخرين، فالإسلام انتشر عن طريق أولئك الأعراب و فيهم الفقراء فقد كانوا يعلنون في أقوالهم و مخاطبتهم للآخرين سواء من أهل الفرس أو من الروم، كانوا يقولون لهم: لقد أتينا لننقذكم، و لم يشعروا بمركب النقص، فالإمكانات الحضارية المتكدسة أمامهم في فارس أو بيزنطة لم تبهرهم و لم تفرض عليه الشعور بالدونية أو النقص، لقد كانوا يشعرون بإرادة حضارية تفوق كثيرا ما تبقى منها لدى المجتمعات المتحضرة في ذلك العصر.[34]

---

[31] مالك بن نبي: دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، دار الفكر، سورية، 2009، ص 28،29.

[32] المرجع السابق، 36-45.

[33] مالك بن نبي: مجالس دمشق، مرجع سابق، ص 69،70.

[34] مالك بن نبي: دور المسلم ورسالته، مرجع سابق، ص 35

و لا يغفل بن نبي الناحية العملية فيدعو عبر كتاباته إلى إنشاء العلاقات الاجتماعية و الحرص على أداء العمل المشترك و تغليب مصلحة الجماعة على المصلحة الفردية: "فالمجتمع ليس مجرد كمية من الأفراد، وإنما هو اشتراك هؤلاء الأفراد في اتجاه واحد من أجل القيام بوظيفة معينة ذات غاية، ونضيف أن عمل المجتمع ليس مجرد اتفاق عفوي بين الأشخاص و الأفكار و الأشياء، بل هو تركيب هذه العوالم الاجتماعية الثلاثة، التركيب الذي يحقق معه ناتجه في اتجاهه و في مداه تغيير وجوه الحياة، أو بمعنى أصح، تطور هذا المجتمع".

يقدم مالك بن نبي أنموذجا لمجتمع نجح في فترة تاريخية مشرقة عبر نسج العلاقات الاجتماعية نسجا محكما يقوم على الإيثار و المحبة و التعاون و التكافل والتنازل للصالح العام:"و المعلوم أن أول عمل يؤديه مجتمع معين في طريق تغيير نفسه مشروط باكتمال شبكة العلاقات الاجتماعية، هذه الأخيرة تعتبر العمل التاريخي الأول الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده، و من أجل ذلك كان أول عمل قام به المجتمع الاسلامي هو الميثاق الذي يربط بين الأنصار و المهاجرين...إن أصل شبكة العلاقات الاجتماعية الذي يتيح لمجتمع معين أن يؤدي عمله المشترك إنما يكمن في تخلق تركيبه العضوي، و عندما تصاب الذوات بالتضخم فالعلاقات تصبح فاسدة، ويصبح العمل المشترك صعبا ومستحيلا إذ يدور النقاش حينئذ لا لإيجاد حلول للمشكلات بل للعثور على الأدلة و البراهين"[35]

و يرى أن الفاعلية و هو مفهوم يؤكد عليه في الكثير من السياقات و منها سياق العلاقات الاجتماعية و تقسيم العمل، تنمو تدريجيا مع تعقد المصلحة أي أن الانتاج الاجتماعي يرتقي بقدر ما يكون النشاط الفردي موجها لسد حاجات غير فردية، و بعبارة أخرى بقدر ما يكون موجها لمصلحة عامة، فإذا كانت المصلحة هي التي تفسر لنا الفاعلية، فما هي المؤثرات التي تختلف باختلاف المصلحة في عصور مختلفة أو في مجتمعات مختلفة[36]

كما يؤكد على أهمية التخطيط و الاعتماد على الذات، ذلك أن الخطة ينبغي أن تتوقع في إطارها المفاهيمي كما في إطارها التنفيذي كل الشروط المعنوية و المادية لنجاحها، و هي مجموعة شروط تحدد تماما التقنية المعقدة للخطة، و لكن واحدا من هذه الشروط التي تمس مباشرة الجانب التقني للخطة هو وحدة المفهوم، و التخطيط في بلد في طور النمو يهدف أساسا إلى تحريك كامل طاقاته و موارده البشرية و المادية تحريكا يؤدي إلى خلق ديناميكية اجتماعية، و بابتعاد أحد عناصر هذا التخطيط مهما كان ضئيلا عن القياس العام للمجموع، أو عن القواعد الأخلاقية الملازمة للعمل الجماعي لا يمكن بالنتيجة

[35] مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 27-34.

[36] مالك بن نبي: تأملات، مرجع سابق، ص 36.

إلا أن يؤثر سلبيا على توازن الديناميكية التي يراد خلقها، و يفقد التخطيط كل معناه التقني ابتداء من اللحظة التي تكون فيها فكرته الرائدة مستوحاة من الخارج، فهذا لا يكون تخطيطا، و إنما مجرد مهارة.[37]

يمكن القول أن مالك بن نبي إذ يركز على الإنسان وما يجب أن يتوفر عليه هذا العنصر من شروط و قواعد تتعلق بالناحية الإيمانية و النفسية و العملية، فهو بذلك قد وضع النقاط على الحروف، و أنا على يقين لو أن كتابات بن نبي وضعت في طريقها الصحيح و تحولت إلى مشاريع عملية لكفتنا مظاهر التخلف التي نعاني منها، و أشير أنه يمكن توليد قراءات متنوعة في موضوع الإنسان عند مالك بن نبي، وبالتالي الكتابة من عدة أوجه، أو في عدة مجالات، و منها السياسة وم جال الحكم و التنظيم، الإقتصاد و إدارة الإنتاج و التحكم فيه و تطويره، التعليم و وضع السياسات و البرامج التربوية، الثقافة و مد المصطلح إلى أبعد مما هو عليه الآن.

2- التراب:

يعتبر التراب أحد العناصر الحضارية الهامة في معادلة مالك بن نبي وقد عالجه من جانبين:

- المظهر القانوني (التشريعي) يتصل الإنسان بالتراب من خلال صورة الملكية أي من حيث تشريع الملكية في المجتمع الذي يحقق الضمانات الاجتماعية.

- المظهر الفني: ويقصد به السيطرة الفنية والاستخدام الفني الذي تتيحه العلوم المختصة، كعلم التربة، أو الكيمياء....[38]

و يخضع تقييم التراب في فكر مالك بن نبي لمعيار تقدم الحضارة التي تحيطه أو تحده، و التي تعمل على استغلاله أحسن استغلال، و هذا ما حدث في الزمن الماضي و الحضارة الإسلامية تعيش أوج قوتها، لكنها سرعان ما تراجعت، فتراجعت معها قيمة التراب التي أصبحت مهملة، و حيث يركز مالك بن نبي على قيمة التراب الاجتماعية و طبيعة من يملكه، فإنه برأيي وجب إضافة القيم الأخرى، وهي قيمة تنوع المساحات التي يتوفر فيها هذا التراب و هي مساحات متنوعة و منتشرة، بالإضافة إلى قيمة نوعه فهو يقع في قارات مختلفة الأجواء و التغيرات الجوية و كميات المياه التي تنتشر في البحار و المضائق، و الأنهار والمحيطات مما يسهل عملية ممارسة الإنتاج، يقول:" و نحن حين نتكلم عن التراب، لا نبحث في خصائصه و طبيعته، فليس هذا البحث من موضوع الكتاب، و لكننا نتكلم عنه من من حيث قيمته الاجتماعية، و هذه القيمة مستمدة من قيمة مالكيه، فحينما تكون قيمة الأمة مرتفعة و حضارتها

[37] مالك بن نبي: من أجل التغيير، دار الفكر سورية، 2009، ص 30-33.

[38] الطاهر سعود: مرجع سابق، ص222.

متقدمة يكون التراب غالي القيمة، و حيث تكون الأمة متخلفة، يكون التراب على قدرها من الانحطاط"[39].

يضيف بن نبي عنصرا أساسيا يزيد من أهمية التراب، هو هوية هذه الأمة و انتماءها أي "الإسلام"، فهذه الأمة ارتقت في زمن معين بظهور و نزول رسالة الإسلام، و معها ارتقت قيمة العمل و استغلال و خدمة التراب، فتقوت هذه الأمة التي تأكل من تراب أرضها و تنتج في تراب أرضها، فتوفر الإنتاج، و كثرت الصنائع، و ارتقت العلوم، لكن بعد هذه الأمة عن دينها جعلها تتخلف على مستوى كل الأصعدة، ومنها صعيد الإنتاج و الاقتصاد، فأضحت بذلك لقمة سائغة لمن حولوا مجتمعات صغيرة إلى حضارات كبيرة تقود العالم وفقا لشعارات ابتليت بها الأمة الإسلامية و التي لم تحسن التعامل معها.

يلفت مالك بني نبي نظرنا و تصورنا إلى مشهدين، مشهد الجزائر ما بعد الاستقلال و غزو الرمال لبعض أجزاء المدن الغير صحروية، بالإضافة إلى الدول الواقعة في الشمال الافريقي التي أخلت بالتشجير و الإقلال من مساحاته إقلالا بالغا، و ما يحدث الآن من استغلال المساحات الخضراء و تحويلها إلى تجمعات اسمنتية ما يؤثر عليها في الزمن الحاضر، وبين المشهد في فرنسا التي أحسن استغلال عمليات التشجير في الناحية الغربية الجنوبية التي تحولت إلى أول منتج في العالم لنوع من الزيوت كما أصبحت ملجأ صحيا للمرضى من جميع أنحاء الأرض.[40]

ويمكن القول أن التراب هو المحيط كله و الإنتاج الخاص –إنتاج الأنا المسلم– ضمن هذا المحيط، حيث يتم تركيز التفكير في التعامل مع الظروف المحيطة بما هو متاح من إمكانات داخل المحيط نفسه، و هي قاعدة تدعو إلى التفكير في الإنتاج و استغلال المحلي و الوطني بكل الأساليب و الوسائل المشروعة، و يكون ذلك "على مستوى المصطلح أو الإنتاج فلا يمكن الاستعانة دائما بما أنتجه الآخرون بل محاولة تجاوز ذلك إلى التفكير في الإنتاج، و يتم مواجهة ذلك بإنتاج حضارة توظف كل الطاقات الاجتماعية الموجودة و تنشئ تدريجيا و سائلها الفنية بقدر ما تتخلص من رواسب و معوقات ما قبل الحضارة"[41].

يقول بن نبي:"فجميع أنواع الحلول ذات الصيغة الاجتماعية التي نقتبسها عن بلاد أخرى ثبتت لها فيها صلاحيتها، تشبه الصيغة الكيمائية لتركيب الماء، و هي صحيحة في هذه البلاد على وجه التأكيد، و لكنها تقتضي عند التطبيق عناصر مكملة لا تأتي معها، و لا يمكن أن تأتي معها، لأنه لا يمكن حصرها، و لا يمكن فصلها عن المحيط الاجتماعي في بلادها، أي لا يمكن فصلها عن روحها، و إذن، فلكي نواجه بطريقة فنية أية مشكلة اجتماعية، ينبغي ألا يقتصر عملنا على اقتراض الحلول التي تأكدت

[39] مالك بن نبي: شروط النهضة، ص139.

[40] المرجع السابق، ص 142، 143.

[41] مالك بن نبي: تأملات، ص62

صحتها خارج بلادنا، إذ أن الصيغة المقتبسة صحيحة بلا أدنى شك، و لكن في إطارها الاجتماعي، و في محيطها الذي تخلقت فيه".[42]

3- الوقت:

يشير مالك بن نبي إلى أهمية الوقت في جل مؤلفاته، وعادة ما يقرنه بالتجارب الناجحة في الدول الأوروبية و الأسيوية التي قامت باستغلاله و توظيفه بطريقة منظمة عبر المخططات و الاستراتيجيات التي تنبع من مدارسها الفكرية و الاقتصادية و الاجتماعية.

و الوقت ثروة متدفقة يجب استغلالها بالشكل الجيد، و هي قيمة لا تقوم بالمال، و هو في العالم الإسلامي صار من قيم التخلي، لأن المسلم (العربي تحديدا)، صارت أوقاته مضاعفة على واجباته، فهو يؤديها في سويعات قلائل و ما تبقى يهدره في مظان غير مظانه، وحال الأمة العربية و الإسلامية يؤكد على صحة ذلك، ولننظر إلى النعم الموفورة التي تحظى بعما الأمتين، من امتداد جغرافي، و مناخ متنوع، و آيادي و عقول بمئات الملايينن، و في النهاية الحال مأزوم والفوضى تعلن الانهيار الاخلاقي – ليس بالمطلق- ولكن من الشواهد ما يكفي للاستدلال و الاستغراق في التوصيف السلبي.

و يرى مالك بن نبي أن الوقت نهر قديم يعبر العالم، و يؤكد على أهميته، لكنه يقف بحسرة على موقعه من العالم الإسلامي ليؤكد المشهد المزعج بعد عقد مقارنات مع دول متحضرة تحترم الوقت كما تحترم نفسها، يقول:"فنحن في العالم الإسلامي نعرف شيئا يسمى (الوقت)، و لكنه الوقت الذي ينتهي إلى عدم، لأننا لا ندرك معناه و لا تجزئته الفنية، لأننا لا ندرك قيمة أجزائه من ساعة و دقيقة و ثانية، ولسنا نعرف إلى الآن فكرة الزمن الذي يتصل اتصالا وثيقا بالتاريخ،...وبتحديد فكرة الزمن يتحدد معنى التأثير و الإنتاج، و هو معنى الحياة الذي ينقصنا، ...فالحياة و التاريخ الخاضعان للتوقيت كان و ما يزالا يفوتنا قطارهما، فنحن في حاجة ملحة إلى توقيت دقيق، و خطوات واسعة لكي نعوض تأخرنا..."[43].

ويقول:"إننا إذا قسنا الزمن بمقياس الساعات التائهة، فالقرن لا يساوي شيئا، بل حتى ألف سنة لا تساوي شيئا، أما إذا قدرنا الزمن بمقياس تايلور فإن كل دقيقة لها وزنها، الذي يكون معه للسنوات الخمسين التي مرت على الثورة السوفيتية ثقل هذه الدقائق المنتجة، والتي أتاحت لمجتمع معاصر لنا أن ينتقل من عهد الموجيك إلى عهد رواد الفضاء في برهة من الزمن جد قصيرة...إنه ليس من الضروري ولا

---

[42] مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 103.

[43] مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 145،146.

من الممكن أن يكون لمجتمع فقير المليارات من الذهب كي ينهض، وإنما ينهض بالرصيد الذي لا يستطيع الدهر أن ينقص من قيمته شيئا، الرصيد الذي وضعته العناية الإلهية بين يديه: الوقت" [44]

ويرى مالك بن نبي، أن من ضرورات تثمين الوقت هو العمل على توجيه الطاقات والقوي المتوفرة في المجتمعات العربية و الإسلامية، والتي لم تستخدم للوصول إلى الهدف المنشود،" فهناك ملايين السواعد العاملة و العقول المفكرة في العالم الاسلامي، صالحة لأن تستخدم في كل وقت، و المهم أن يدار هذا الجهاز الهائل المكون من ملايين السواعد و العقول في أحسن الظروف الزمنية و الإنتاجية المناسبة لكل عضو من أعضائه، و هذا الجهاز حين يتحرك فإنه يحدد مجرى التاريخ نحو الهدف المنشود"[45]

ويطرح بن نبي ومن منظور تثمين الوقت أو الزمن أيضا، مسألة الحقوق و الواجبات، بشي من الدقة فيركز على ضرورة القيام بالواجب أكثر من التركيز على الرغبة في نيل الحقوق، و قد لا يوافق الكثير هذه القاعدة انطلاقا من خلفيات و حاجات و مصالح معينة، ، إلا إنني أوافق ما ذهب إليه في التأكيد عليها، فالواجبات أكثر من الأوقات، و لو التزم كل فرد أو مجموعة القيام بها، لأتت الحقوق سعيا، "فالمجتمع الذي يرتفع وينمو فإن ذلك يعني أن لديه رصيدا من الواجب فائضا، وقد دعا القرآن الكريم العباد إلى الطريق المستقيم و هو الطريق الواجب، و الحقوق تلحق بالواجب بطبيعتها"[46].

يقول" لقد أصبحنا لا نتكلم إلا عن حقوقنا المهضومة و نسينا الواجبات، نسينا أن مشكلتنا ليست فيما نستحق من رغائب بل فيما يسودنا من عادات و ما يراودنا من أفكار، وفي تصوراتنا الاجتماعية بما فيها من قيم الجمال و الأخلاق وما فيها من نقائص، و بدلا من أن تكون البلاد ورشة للعمل المثمر والقيام بالواجبات الباعثة إلى الحياة، فإنها أصبحت منذ 1936 سوقا للانتخابات، و صارت كل منضدة في المقاهي منبرا تلقي منه الخطب الانتخابية، فكم سمعنا من اسطوانات وكم رددنا عبارة (إننا نطالب بحقوقنا)، تلك الحقوق الخلابة المغرية التي يستسهلها الناس، فلا يعمدون إلى الطريق الأصعب طريق الواجبات[47].

وهنا لنا من هدي النبي صلى الله عليه وسلم دروس أمام هذه المشكلة، إذ لنا من بعض رموزه دروس عميقة، دروس اجتماعية في صورة رموز بسيطة، يأتيه يوما أعرابي يسأله ما يقتات به، ففي هذه اللحظة الأعرابي يطلب حقا مشروعا له في الزكاة، والنبي ألم منا بهذا، ولكنه لا يحل القضية على أساس هذا الحق، بل يحلها على أساس الواجب فيشير على الصحابة رضوان الله عليهم قائلا: جهزوا أخاكم

---

[44] مالك بن نبي: بين الرشاد والتيه، دار الفكر سورية، 2009، ص 68،69.

[45] مالك بن نبي:شروط النهضة، مرجع سابق، ص 84.

[46] مالك بن نبي: تأملات ، مرجع سابق، ص31.

[47] مالك بن نبي: شروط النهضة، مرجع سابق، ص 37.

كي يحتطب، فالنبي أراد أن يقدم درسا لهذا الإنسان، ويحوله في الوقت نفسه من مجرد مستهلك يعيش على كاهل المجتمع الناشئ إلى منتج.[48]

ثالثا: الفكرة الدينية...تآلف و تعانق بين العناصر

يعتبر الدين أهم و أقوى وسيلة من وسائل الضبط الاجتماعي، من خلال ما يقوم به من وظائف في حياة الفرد و المجتمع و استقرار النظم الاجتماعية، و هو يضبط سلوك الأفراد في المجتمع بالثواب و العقاب في الحياة و في الآخرة ، و يبرز أثر الدين و بالذات الدين الإسلامي كأداة ضبط فيما يشتمل عليه من تعاليم تمثل في مجملها مجموعة من الضوابط تظهر في العبادات المتعلقة في العلاقة بين العبد وخالقه سبحانه وتعالى، وفي المعاملات التي تعكس العلاقة بين الأفراد[49].

ومن الدعائم التي يعتبرها (الماوردي) ضرورية للضبط الاجتماعي ستة أمور هي:"دين متبع و سلطان قاهر و عدل شامل و أمن عام و خصب دائم و أمل فسيح"[50]، و الإرتقاء بالإنسان إلى مصف الإنسانية المكتملة و الكمال لله، يحتاج إلى انضباط أخلاقي داخل المجتمع، هذا الانضباط ينبع من الوازع الديني أو الضمير وهما آليتان لتحضير الإنسان وجعله فاعلا إيجابيا حيث تواجد، وهما آليتان لحفظ التوازن السلوكي له داخل الجماعة مما يدفع بالسلوكيات السلبية إلى التراجع و الاندثار، كالجريمة بأنواعها والعنف بأنواعه.

و يثبت مالك بن نبي من خلال كتاباته أن الدين عنصر مهم في بناء أي حضارة، و يستشهد بصور عديدة من المحيط الأجنبي و المحيط الإسلامي، و تأثر كليهما ببعض في تطوير بعض البنى الحضارية، من علوم مادية و تجريبية، إلى علوم إجتماعية و إنسانية، فرؤية بن نبي للدين كفاعل أساسي في الحضارة حقيقة مثبتة و ليست مجرد عاطفة عابرة بحكم الانتماء إلى المعتقد.

يقول:" كلما أوغل المرء في الماضي التاريخي للإنسان في الأحقاب الزاهرة لحضارته، أو في المراحل البدائية لتطوره الاجتماعي وجد سطورا من الفكرة الدينية ولقد أزهر علم الآثار بقايا لها خصصها الإنسان القديم لشعائره الدينية، أيا كانت تلك الشعائر ولقد سارت هندسة البناء من كهوف العبادة في العصري الحجري، إلى عهد المعابد الفخمة جنبا إلى جنب مع الفكرة الدينية التي طبعت قوانين الإنسان بل علومه فولدت الحضارات في ظل المعابد...و من هناك كانت تشرق هذه الحضارات لكي تنير العالم،

---

[48] مجالس دمشق، مرجع سابق، ص 121.

[49] سلوى علي سليم، الاسلام والضبط الاجتماعي، مكتبة وهبه، الطبعة الاولى، 1985، ص61.

[50] موسى ابو حوسه، قواعد الضبط الاجتماعي عند الماوردي، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، العدد 17، المجلد 5، 1985، ص48.

و تزدهر في جامعاته و معامله، و تجلي المناقشات السياسية في برلماناته، فقوانين الأمم المتحدة لاهوتية في أساسها، أما ما يطلقون عليه قانونهم المدني، فإنه ديني في جوهره..."[51].

إن العلاقة بين الدين و ظواهر المجتمع تتحدد بفرضية و تفسيرات، فالفرضية عند بن نبي هي الفكرة الدينية، و التفسيرات هي الإلمام بظاهرة التغيير الاجتماعي و الوصول إلى الحضارة في مجتمع من المجتمعات في مرحلة من مراحل التاريخ البشري، و حلل بن نبي سقوط المجتمعات و تدهورها نتيجة لغياب الوظيفة الاجتماعية للدين.[52]

يقول بن نبي:" و لكن أوضاع القيم تنقلب في عصور الانحطاط لتبدوا الأمور ذات خطر كبير، فإذا ما حدث هذا الانقلاب انهار البناء الاجتماعي إذ هو لا يقوى على البقاء بمقومات الفن والعلم والعقل فحسب، لأن الروح تتيح للإنسانية أن تنهض و تتقدم، فحيثما فقد الروح سقطت الحضارة و انحطت".[53]

إن الدين يتجلى أيضا في العلاقة الروحية بين المعبود و الإنسان وهي عامل مهم في تمتين العلاقات الاجتماعية و تنظيم المجتمع و تهيئته للقيام بدوره التاريخي، –و حتى المستقبلي– و يحقق نشاط أفراده من خلال العمل المشترك، فالدين يربط أهداف السماء بضرورات الأرض فالجانب الغيبي للدين هو الذي يوفر المبررات و يوجد الإرادة الإجتماعية،...وإن انعدام النزعة الحقيقة للإيمان بالغيب يؤدي إلى فقدان العمل لفاعليته الاجتماعية، بحيث يصبح الإيمان محصورا في نطاق الفرد فاقدا لإشعاعه[54]، ومن قوله تعالى: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" (الذاريات:56)، فإن الله تعالى لم يرد بهذا القانون– العبادة– أن يفصل الناس عن الأرض– محل السعي و الاستخلاف– ولكن أراد ان يفتح لهم طريقا خيرا ليضطلعوا بعملهم الأرضي، و التاريخ يرينا مدى القدرة التي امتاز بها المسلمون الأوائل حين ساروا في هذه الطريق، ووفقا للقاعدة "إن الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بانفسهم" (الرعد:11)، هذا التغيير هو الذي يتسهل به المجتمع الحياة[55].

"فسواء كنا بصدد المجتمع الإسلامي، أو المجتمع المسيحي، أم كنا بصدد المجتمعات التي تحجرت اليوم، أو اختلفت تماما عن الوجود، نستطيع أن نقرر أن الفكرة التي غرست، بذرتها في حقل التاريخ هي

---

[51] مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، دار الفكر، سوريا، ط9، 2009، ص 69.

[52] نورة خالد السعد: التغير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي، دراسة في بناء النظرية الاجتماعية، الدار السعودية للنشر والتوزيع، السعودية، 1997، ص 118.

[53] مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 30،31.

[54] نورة السعد، مرجع سابق، ص 119.

[55] مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص

فكرة دينية، ومعنى هذا أن (الظرف الاستثنائي) الذي يلد مجتمعا يتفق في الواقع مع الفكرة الدينية التي تحمل مقاديره، كما تحمل النطفة جميع عناصر الكائن الذي سيخرج فيما بعد إلى الوجود"[56].

و من المؤكد أنه عندما نتناول الحضارة الإسلامية فلا بد من أن يدخل في اطرادها بالضرورة عاملان هما: الفكرة الإسلامية التي هي أصل الاطراد نفسه، و الإنسان المسلم الذي هو السند المحسوس لهذه الفكرة.[57]

و تقوم الفكرة الدينية التي رافقت تركيب الحضارة خلال التاريخ بمزج و تجاوب عناصر ثلاثية مع بعضها البعض هي: الإنسان، و التراب، و الوقت، هذا المزج يعفي بعض المجتمعات من تكديس ما تنتجه الحضارات الأخرى ويدفع بها إلى محاولة البناء و التعويل على الذات " إن المقياس العام لعملية الحضارة ليلقي لنا ضوءا كاشفا على السلبية النسبية و انعدام الفاعلية في جهود المجتمع الاسلامي، إن المقياس العام في عملية الحضارة هو أن الحضارة هي التي تلد منتجاتها، و سيكون من السخف و السخرية حتما أن نعكس القاعدة حين نريد أن نصنع حضارة من منتجاتها"[58]

"ولقد ترتبت على الواقع المتمثل في إهمال العالم الاسلامي لهذا المظهر، النتيجة التي نشاهدها حيث اقتحم الزي الأروبي، و البوق، و الطنبور و الهاتف، و السيارة شتى بلدان العالم الاسلامي منذ خمسين سنة، و لكن مشاكل التخلف ظلت راسخة القدم داخل هذه البلدان، فقد أردنا بدل الاضطلاع بتشييد حضارة، أن نقوم بتكديس منتجاتها، و لم يكن عمل النهضة الإسلامية طوال السنوات الخمس الأخيرة يمثل تشييدا و لكن تكديسا للعتاد، والمؤسف أن روح التكديس والشيئية التي يجب التخلص منها ما انفكت مستمرة البقاء".[59]

ويصف بن نبي رسالة المسلم الأساسية في هذا العالم المتغير، بأنها رسالة واضحة المعالم، والمبادئ التي لا يجب أن يحيد عنها بمجرد هبة ريح ضعيفة، منطلقها الكتاب و السنة، وبناءها الإيمان و الأخلاق، كما كانت في مجموعها أثناء بناء الدولة الأولى —دولة الرسول صلى الله عليه و سلم– " فبهذا يستطيع منذ البداية أن يحتفظ باستقلاله الأخلاقي، حتى لو عاش في مجتمع لا يتفق مع مثله الأعلى، و يستطيع أن يواجه أيضا على الرغم من فقره أو ثرائه و مهما يكن قدر الظروف الخارجية الأخلاقية أو المادية، و هو بهذه الطريقة يستطيع أيضا أن ينشئ وسطه الخاص شيئا فشيئا، حين يؤثر على الظروف

[56] مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 56.

[57] مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 84.

[58] مالك بن نبي:شروط النهضة، مرجع سابق، ص 47.

[59] مالك بن نبي: القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص 50.

الخارجية بحياة نموذجية ينتقل أثرها إلى ما عداها، كما كانت حياة حفنة الرجال الذين عاشوا حول النبي صلى الله عليه و سلم بمكة أيام الإسلام الأولى"[60].

و لتحقيق المضي على المنهج الإسلامي الأول المزدهر، يرى مالك بن نبي ضرورة تجنب التعلق الواهم بالماضي الاسلامي المتفوق، و تجنب الإيغال في نزعة المديح، فالتعلق بالماضي المتوفق و نزعة المديح المفرط، تصاحب الفكر العربي و الإسلامي المعاصر و الحاضر، و تجدني أصفها بالمبالغة و السلبية، و قد استهلكت هذه النزعة فرص التقدم و التطوير و العمل الإيجابي، يقول مالك بن نبي: " فحين اتجهت الثقافة إلى امتداح الماضي أصبحت ثقافة أثرية، لا يتجه العمل الفكري فيها إلى الأمام بل ينتكس إلى وراء، وكان هذا الاتجاه الناكص المسرف سببا في انطباع التعليم كله بطابع دارس لا يتفق و مقتضيات الحاضر و المستقبل، و بذلك أصيبت الأفكار بظاهرة التشبث بالماضي، كأنما قد أصبحت متنفس له".[61]

بعد هذه القراءة المختصرة لعناصر الحضارة و المركب الديني لها، أخلص إلى أن منهج مالك بن نبي الاستشرافي يقدم تصورا واضحا للنهضة و التقدم من جديد، فقد استعان بالمورث التاريخي للأمة الإسلامية و هي في أوج قوتها و ازدهارها و الموروث التاريخي للدول الأجنبية و انطلاقها نحو التطوير، و من خلالهما كان يعالج الظواهر و القضايا التي عاصرها ويقترح الحلول.

رابعا: الإسناد المعرفي للرؤية التكاملية

والمقصود بها أهم الأفكار والتجارب الذي استند إليها مالك بن نبي لصياغة المشروع الحضاري والرؤية التكاملية لعناصر الحضارة بغية النهوض بالمجتمعات المتخلفة، فجمعت كتاباته مرجعيات هامة غربية وعربية، كما جمعت شخصيات فكرية يعتد بها في الحقول المعرفية المختلفة، واعتمد مالك بن نبي في تآليفه على تجاربه الشخصية بحكم احتكاكه بمختلف الجنسيات، وكان للأفكار التاريخية حضور كبير، خاصة فيما يتعلق بالتاريخ الاسلامي، ونشأة الدولة الاسلامية الأولى في المدينة المنورة، كما استند مالك بن نبي إلى آي القرآن الكريم للتدليل على صحة وأهمية أفكاره، وتطبيقات الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته والخلفاء من بعد.

في عرضه لعناصر الحضارة، يورد ابن نبي آيات كثيرة تتعلق بالإنسان، وما يجب أن تكون عليه أخلاقه و سلوكياته، وفق سلم ترتيبي تقتضيها وظيفته، فالمسئول و بموجب الصلاحيات التي يملكها، لا يحق له أن يتفرد بالحكم و يتعسف فالمشورة وتبادل الرأي مع أهل العلم والكياسة واجبة بحكم الأمر

[60] مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 114.

[61] مالك بن نبي: وجهة العالم الاسلامي، مرجع سابق، ص 60.

الوارد في الأية الكريمة في الأية:" وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ" (آل عمران:159)، وهو مطالب بإقامة العدل و الحكم بالعدل لسياسة أفراد المجتمع" وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ" (النساء:58).

ويشير بن نبي في معرض التأكيد على الفاعلية و القيام بالواجبات و تحقيق ما سبق إليه المسلمون الأوائل، وما توصلت إليه التجارب الغربية الرائدة في مجالات الاستثمار و الإدراة و التخطيط إلى الأية "إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ" (الرعد:11)، وهي تتكرر بمعدل كبير في كتاباته.

ويستشهد بالأية" كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ"(آل عمران:110) ليؤكد على الروح الجماعية في تنمية المجتمع و حماية الإنسان، و الإصرار على فعل الخير و ترك الشر، و يعقد بن نبي مقارنة بين التعاليم المسيحية و تعاليم القرآن الكريم، ليؤكد عظمة هذه الآية.

كما يسوق بن نبي الكثير من الأحاديث التي تؤكد على ضرورة العمل و القيام بالواجب التي تؤطره النظريات الكثيرة و منها"والَّذي نفسي بيدِه لأن يأخُذَ أحدُكم حبلَه فيذهبُ فيحتطِبُ ثمَّ يأتي به فيحمِلُه على ظهرِه فيأكلُ منه خيرٌ له من أن يسألَ النَّاسَ ولأن يأخذَ ترابًا فيجعلُه في فيه خيرٌ له من أن يجعلَ في فيه حرامًا"[62]، ويدعو إلى التكافل واحترام الإنسان وحقوقه البشرية وفيها مقارنة لما تدعو له نظريات حقوق الإنسان ومواثيقها الدولية:"إ خوانُكُم جعلَهُمُ اللَّهُ تحتَ أيديكُم ، فأطعِموهم مِمَّا تأكُلونَ ، وألبِسوهم مِمَّا تلبَسونَ ، ولا تُكَلِّفوهم ما يغلبُهُم ، فإن كلَّفتُموهُم فأَعينوهُم".[63]

ولا تسع هذه الورقات مجموع الآيات والأحاديث التي يسوقها بن نبي في حديثه عن الإنسان وهو الفاعل الأول في بناء الحضارة باستغلال العناصر الأولى، ويقرنها بمقاربات غربية هامة في ظل ما يسمى بالرؤية التكاملية.

يستعين بن نبي في كتاباته عن الحضارة و تركيبها و دورتها بأفكار ابن خلدون في تفسيره لدورة الحضارة، هذا الأخير لم يقف عند مصطلح الحضارة وكان يركز في كتاباته على ناتج من نتائجها وهي الدولة، وأفكار ماركس في تطبيقه للجدلية المادية، باعتبار الاتجاه المادي التاريخي الذي كان سائدا في أوروبا، فالحضارة عنده هي نتاج الضرورات المادية و الحاجات الأساسية للإنسان، و الفيلسوف شبنجلر الذي يفسر الحضارة بأنها ثمرة لعبقرية خاصة، و أرلوند توينبي الذي فسر نشأة الحضارة بتضخيم العامل

[62] الراوي : أبو هريرة، المحدث : المنذري المصدر : الترغيب والترهيب،الصفحة أو الرقم 3/18، خلاصة حكم المحدث : إسناده جيد

[63] الراوي : أبو ذر الغفاري، المحدث : الألباني، المصدر : صحيح ابن ماجه، الصفحة أو الرقم 2991 ، خلاصة حكم المحدث : صحيح.

الجغرافي و دوره الأساسي في ذلك هذا العامل الذي يدعوه بالتحدي يفسر نشأتها على أنها رد معين على تحد معين.

يستفيد بن نبي من أفكار شاخت الاقتصادية التي نجح تطبيقها في ألمانيا وفشلت في أندونيسيا، بسبب الخطأ في تقدير المعطيات البشرية في المجال الاقتصادي، كما يستفيد من المعادلة الاجتماعية ومن مذهب تايلور عن الإدارة العلمية و تفكيره في تنظيم الإنتاج كما تحضر أفكار سقراط و أفلاطون و أرسطو و توماس الأكويني، في البناء الفكري له.

ويعتمد أيضا على آراء لكسرلنج في الموضوع، التي استخلصها من دور الفكرة المسيحية في تركيب الحضارة الغربية، و أفكار ماتسي تونج عن مشكلة الثقافة و الأفكار، حيث يرى أن القلم سلاح في المشكلة، و جميع أفكاره التي انعشت المجتمع الصيني و قادته إلى تحقيق نجاحات باهرة.

يستعين مالك بن نبي بحقول معرفية مختلفة كعلم النفس ، فعادة ما يستخدم مراحل الطفولة للدلالة على عالم الأفكار و إنتاجها ، وهي المرحلة الأخيرة، بعد مرحلة الأشياء، و الأشخاص، كما يستعين بعلم الرياضيات للدلالة على مجموع العناصر التي تشكل الحضارة، الإنسان، التراب، الزمن، أو تحقيق المعالة الاجتماعية والاقتصادية وعلم الكيمياء لتحديد درجة تفاعل هذه العناصر.

وله في تجارب الدول الأسيوية كالصين و اليابان و اندونيسيا و ماليزيا، و تجارب الدول الأوربية كألمانيا خير تجارب على تمثل المناهج المعرفية وتطبيقها خير تمثيل. و يؤكد على النموذج الصيني (الثورة الثقافية) و تحدي الواقع و تعديله في الاتجاه الذي يراه.

خامسا:نتائج البحث

– تعني الحضارة عند مالك بن نبي، توفر مجموعة من الشروط المادية و المعنوية، ويعد الدين منشأ كل حضارة.

– يعد الإنسان في فكر مالك بن نبي محور عملية التغيير وهو الفاعل فيه، و منطلق التغيير هو النفس باعتبار الآية الكريمة:" إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍحَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ" (الرعد:11)، وهو شرط ضروري من شروط الارتقاء في سلم الحضارة.

– يصوغ مالك بن نبي مجموعة محاور للتأكيد على دور الإنسان في الزمان و المكان، تتعلق هذه المحاور بالبعد الأخلاقي و النفسي، و الاقتصادي، و الاجتماعي، يصوغها مالك بن نبي في سياقات مختلفة للحث على البناء والتعمير.

– يلح مالك بن نبي على طرح فكرة الفعالية، باعتبارها الرابط الذي يجمع بين منطق الفكرة و منطق العمل من أجل القضاء على السلبية التي تشيع في المجتمعات المتخلفة عبر خلاياه الدقيقة، و منها

تحويل مبادئ القرآن إلى سلوكيات فعليه بدل الإكثار من الكلام عنه، و كأن مالك بن نبي يرفع شعار: "نريد قرآنا يمشي لا نسخا تتكدس وخطبا تتبجح".

– عادة ما يعقد بن نبي مقارنة بين إنسان الغرب، و الإنسان المسلم، منبها إلى تفوق الأول في كل المجالات، لأنه مؤمن بما يعتنق، و الواجب عنده أكثر من الوقت.

– يحمل مفهوم التراب عند مالك بن نبي معاني و دلالات واسعة، فهو من وجهة سياسية قانونية تلك الرقعة الجغرافية التي تحدها الحدود، وهو من الناحية الاقتصادية المصدر الرئيسي للإنتاج الزراعي و الصناعي على حد سواء، و هو من الناحية المعنوية، الإنتماء و الولاء للفكرة و الدين.

– يأخذ الزمن عند مالك بن نبي أهمية كبيرة لأنه عامل مهم من عوامل بناء الحضارة، و يدعو مالك بن نبي وضمن أطر كبرى لاستثماره و توظيفه في الصالح العام، بدل المصلحة الخاصة و البحث عن تحقيق الذات.

– لا يمكن للعناصر الثلاث أن تمتزج إلا بوجود العامل الروحي، الذي يتلخص في الفكرة الدينية، أو الإيمان و هو التسليم المطلق لإرادة الله عز وجل و العمل ضمن هذه الإرادة في حدود ما شرع، و أمر و أحل و حرم، ثم العمل ضمن دائرة اتباع هدي الرسول صلى الله عليه و سلم.

– يستند بن نبي في البرهنة على صحة أفكاره إلى علوم مختلفة، بحكم تخصصه، من رياضيات و كيمياء، و بيولوجيا، كما يستند لعدة مرجعيات عربية و غربية، و على رأسهم إبن خلدون، و استفاد إبن نبي كثيرا من فن الملاحظة التي أصبحت أداة علمية للوصف.

خاتمة

بعض العرض المتواضع لفكر مالك بن نبي حول الحضارة و عناصرها و الرؤية التكاملية بين المعارف في عرضها، يمكن القول أن المفكر الإسلامي لم يقتصر في الكتابة على زمن أو مكان معينين، فهو يحمل هما و هاجسا للعودة بالحضارة الإسلامية إلى أوج قوتها عبر إحيائها ماديا و روحيا، ولا يتم ذلك إلا بوضع تصور واضح يصاغ وفقها، هذه التصور يستند إلى الفكرة الإسلامية، والتي مرجعها الكتاب و السنة، كما يستند إلى التجربة والخبرة الإنسانيتين التي أضافتا الشيء الكثير إلى هذا المجال.

يؤكد مالك بن نبي أن الحضارة لا ترتكز على عناصر بعينها وإنما هي كل يجب أن يشارك فيه جميع الأفراد، فهي مفهوم شمولي يجب أن يتجسد في كل جوانب الحياة، الذوق، الجمال، البيئة، العمران، السلوك، العلاقات الاجتماعية، الإدارة، الاقتصاد، التمثيل السياسي، و التخطيط، و يكتب مالك بن نبي عن الكثير من المحاور التي توجه الفرد و المجتمع إلى البناء الحضاري، و عمارة الأرض وفق سنن التاريخ الصحيحة، وسنن الكون و النفس،

يرجع مالك بن نبي للقرآن و السنة، للاستدلال على صحة ما يذهب إليه من طرح حول الحضارة ودلاتها، فيستشهد بآي القرآن حول التغيير وأهميته، كما يستشهد بأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم عن الإصلاح ، فينشد بذلك اكتمال فكرته ومثاليتها.

يهدف مالك بن نبي في صياغة رؤيته إلى ضرورة الاهتمام بالإنسان و تفعيله فهو الذي يعول عليه في الانتقال من أجواء التخلف و التبعية، إلى أجواء التطور و القيادة الحضارية، ويعتمد في ذلك على جملة معارف تاريخية، و فكرية، و أخلاقية، و مادية، ترجع إلى أشهر المفكرين و الكتاب، أمثال ابن خلدون، و توينبي، و الأكويني، و ماركس، ولا يعني أنه يتمثلها و يتبناها، إنما يقوم السالب منها ويستفيد من الموجب فيها.

يؤكد مالك بن نبي أن عامل الدين أهم عامل لتأليف عناصر الحضارة ، ويشير إلى وجوب الاقتداء بإنسان ما قبل الموحدين، فهو نموذج الإنسان الفاعل الذي انطلق بحضارته إلى الحضارات الأخرى، بثقة و وعي.

التوصيات:

– دعوة إلى القراءة وإعادة القراءة في في فكر مالك بن نبي الموسوعي، قراءة واعية و متأنية و الاستفادة قدر الإمكان منه، باعتباره فكرا ذو أبعاد قيمية، يعالج واقع المجتمع الجزائري و العالم الإسلامي و يستشرف مستقبلهما في العديد من المجالات.

– يعد طرح تكامل المعرفة عند العلماء المسلمين و الدعوة إلى تجديد أساليب هذا الطرح، مجال مهم في تحريك عجلة الأمة ونقلها إلى حال أفضل و المطلوب أو المستحسن تنظيم لقاءات وبرمجة مواد له في كل الجامعات الاسلامية والعربية.

– تبادل الأطروحات و الرسائل الجامعية التي تناولت هذه الشخصية الهامة و كتبت عنها في المجالات العديدة لخدمة الحضارة، بين الجامعات للاستفادة منها وتبادل المعارف بخصوصها.

– توجيه طلبة الدراسات العليا للكتابة في الفكر الموسوعي لعلماء النهضة والاهتمام بها.

مراجع البحث

1. القرآن الكريم
2. الحديث النبوي
3. أسعد السحمراني، مالك بن نبي"مفكرا إصلاحيا"، دار النفائس، بيروت، ط2، 1986.
4. بشير ضيف الله: فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي، مشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2005، ص 75.
5. سلوى علي سليم، الاسلام والضبط الاجتماعي، مكتبة وهبه، الطبعة الاولى، 1985.
6. الطاهر سعود: التخلف والتنمية في فكر مالك بن نبي، دار الهادي، بيروت، لبنان، 2006.
7. عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، مؤسسة عالم الأفكار، ط2، 2007.
8. مالك بن نبي: بين الرشاد والتيه، دار الفكر سورية، 2009.

9. مالك بن نبي: تأملات، دار الفكر المعاصر لبنان، دار الفكر سورية، 2009.

10. مالك بن نبي: دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، دار الفكر، سورية، 2009.

11. مالك بن:شروط النهضة، دار الفكر، سورية، 2009.

12. مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، دار الفكر، سوريا، 2009.

13. مالك بن نبي: فكرة الافريقية، الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ، دار الفكر، سوريا، ط9، 2009.

14. مالك بن نبي: القضايا الكبرى، دار الفكر، سورية،2009.

15. مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد، دار الفكر، سورية، 2009

16. مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الاسلامي، دار الفكر سورية، 2009.

17. مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، دار الفكر، سورية، 2009.

18. مالك بن نبي: مجالس دمشق، دار الفكر، سورية، 2009.

19. مالك بن نبي: من أجل التغيير، دار الفكر سورية، 2009

20. مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، دار الفكر، سورية، 2009.

21. مالك بن نبي:وجهة العالم الإسلامي، دار الفكر، سورية، 2009.

22. موسى أبو حوسه، قواعد الضبط الاجتماعي عند الماوردي، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، العدد 17، المجلد 5، 1985.

23. نورة خالد السعد: التغير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي، دراسة في بناء النظرية الاجتماعية، الدار السعودية للنشر والتوزيع، السعودية، 1997.